«أين ينتهي الكسل؟ وأين يبدأ التأمل؟»
جان دوتور، دوسان

الفصل الرابع

التأثيرات العضوية للتلفاز

لنتخيل للحظات وجود مجمع للحكماء يضم مختصين بالتربية وعلم النفس وطب الأطفال وعلم الاجتماع وغيرهم يعكفون على دراسة الآثار المدمرة لاختراع شيطاني قام به جوهانز جنسفليش المدعو غوتبنرغ في القرن الخامس عشر الميلادي (الطباعة):

- الكتاب تلك الثمرة الملعونة للمطبعة يشار إليه بإصبع الاتهام باسم الحفاظ على الصحة العقلية للأطفال الذين يخضعون لهذا النوع الجديد من الاستبداد.
- النمو المخيف لنصف الكرة المخية الأيسر مركز اللغة والفكر التجريدي.
- ضمور الجهاز الحركي المأساوي بسبب عدم الحركة الناتج عن المطالعة، والتراجع المرضي للإحساس بالمكان والزمان بسبب العزلة والانكماش على النفس والتفرغ لهذا الكتاب المؤذي.
- الارتباك المحزن في أغنية رولان، والجنس الصريح في نشيد الأناشيد الذي يعرض على عقول الشباب دون احتياط.
- توقفوا! لا تضيفوا المزيد، وامنعوا انتشار هذا المنتج الخبيث، ولِيَحي الناسخون وشعراء الموسيقى حُماة المبادئ الحقيقية والتطور الأصيل للكائن البشري.

obeikandl.com

إن إلقـاء نظرة فاحصة بعد مرور خمسة قرون على اكتشاف الطباعة، والأثـر الذي تركته يسمح لنا بالتبسم على المشهد المذكور أعلاه، مع العلم بأننـا لا نستطيع إيقاف عجلة الزمن من جهة، ومن جهة أخرى فالإنسان لا يعبر إلا عن ذاته من خلال اختراعاته، إن العجل يستخدم في المصفحة وسيـارة الإسعاف، والمطبعـة تضع تحت تصرف النـاس كلمات ضغينة أو محبة، و الإنجيل كتاب بحمد الله، وماين كامف هو من أودلف هتلر كذلك لسوء الحظ، إن هذه النسبية في الأحكام يجب ألا تغيب عن أنظارنا عندما ندرس تأثير التلفاز على نفسية الأطفال، وذلك لسببين على الأقل: **أولهما:** أن الرائـي وسيلة إعلام حديثـة العهد، وأن ثورة السلـوك التي سببتها لم تنتـهِ بعد، وهي أبعد من أن تنتهي؛ و **ثانيهمـا:** أن من الصعب جداً فصل الأسبـاب والآثـار، وعزل العوامل المؤثرة الأخـرى إلى جانب الشاشة مثل: الوسط المحيط والثقافة... إلخ.

ويجـب الابتعاد كذلك عـن البساطة، فهناك باحثـون يقرعون ناقوس الخطر، ويجب أن نُصغي إلى تحذيراتهم دون أن نقع في فخ مواقف انكماش علـى النفس باردة، أو مواقف خوف وجزع. تجاوز الإنسان اختراع السكك الحديديـة لأنه قبلها، ولأنه قبـل كذلك الجهود المبذولـة ومراجعة الذات الضرورية لجعلها دقيقة وآمنة.

الآثار النفسية المرتبطة بفعل مشاهدة الرائي

لقـد أثرنا سابقاً موضوع الآثـار المادية للجلسات الطويلة أمام الشاشة الصغـيرة، وبدون شـك فإن كل مؤثر مادي ينعكس علـى الناحية النفسية للإنسان، ولنذكرها بسرعة.

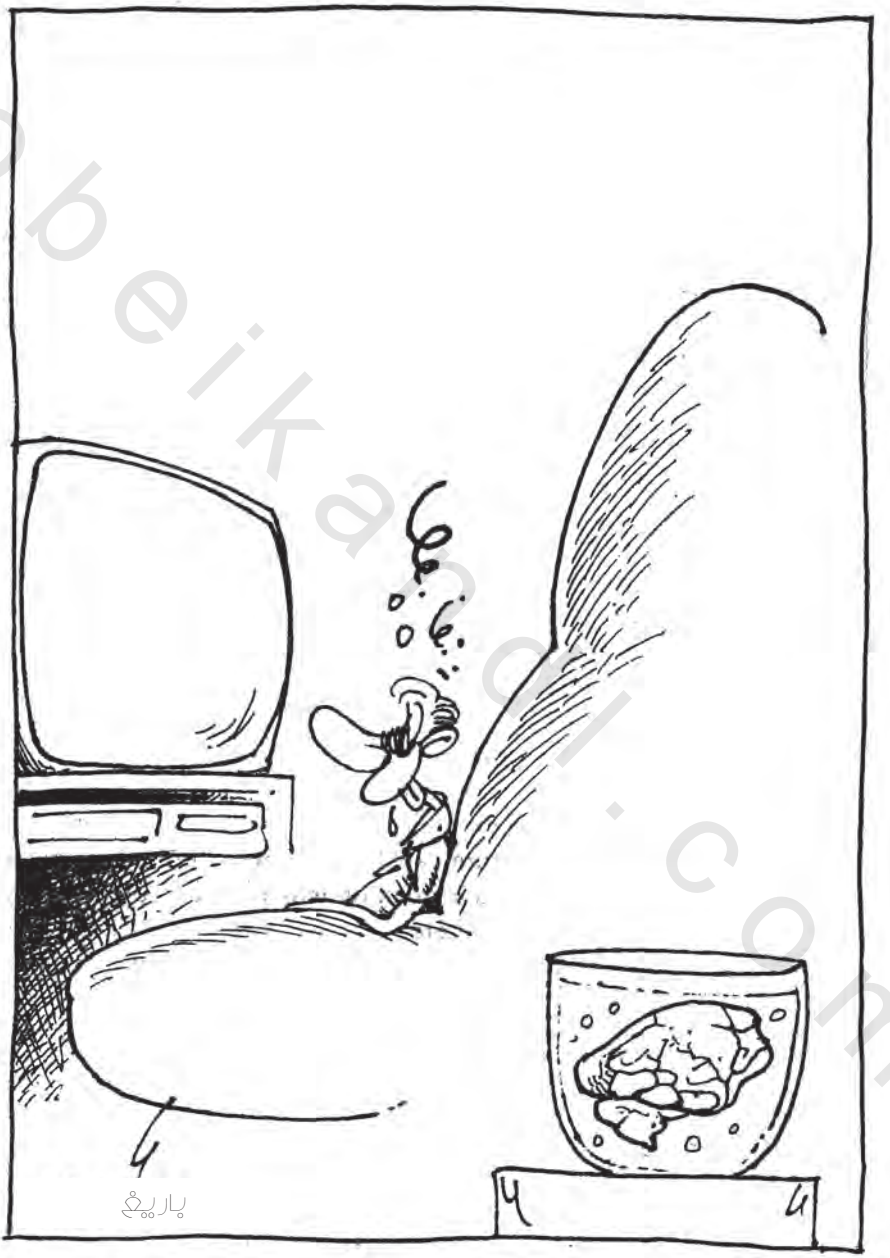

obeikandl.com

إن انعـدام الحركة يؤدي إلى عواقب مهمـة لم تدرس إلا قليلاً من قبل الباحثـين، وهذا مثير للاستغراب، إنها تراكـم التوتر في الجهاز العصبي والذي لا يجد منفـذاً ليتحرر، ففي اللعب مثلاً، يتحقق التوازن بين الإثارة الحسيـة أو الجسديـة والعقل مباشرة، ففي الهـواء الطلق يستطيع الطفل أن يستفيـد بأفضـل الوجـوه مـن الأدرينالين الـذي أفـرزه جسمه، وحتى اللعب الاجتماعيـة الجماعية الدقيقة التنظيم تسمح بحدوث هذا التوازن الصحـي، بإمكاننا أن نضـرب بقوة على الطاولة ورقة لعـب رابحة (لعبة الورق)، أو أن نرمي زهر النرد بقوة إيمائية، ونقوم بحركات لجلب الحظ، وشتـم شريك اللعـب الذي يقـودك إلى الإفلاس في لعبـة المونوبولي، وأن نخربش بسرعة وغضب في لعبة قاموس الرسوم (Pictionary) وأن نجيل النظـر في كل الاتجاهات، أو أن نتوارى خلسـة لنصل إلى المربع الأخير في أيسر اللوحة.

إن مشاهـدة الرائـي لا تسمـح بإعادة التـوازن الدائم بـين العواطف والحركـة، إننا لسنـا بحاجة لإحصائيـات معقدة أو دراسـات في المخابر لملاحظـة هـذه التأثـيرات علـى الأطفال في محيطنـا، إن درجـة تعبهم و قابليتهـم للاستثارة وعنفهـم وعدم الروحي الحركي لهـا علاقة مباشرة بتراكم التوتر غير المنفس أمام الشاشة الصغيرة.

الشاشة الصغيرة كبديل عن النشاطات الأخرى

دون أحـكام مسبقة عن الآثار الضارة للرائي، يجب علينا ملاحظة أنه يحـل محل النشاطات الأخرى التي نعـرف أهميتها لتطور الطفل الصغير مـن الناحية العاطفيـة النفسية وتطور ذكائه، إن أبحـاث بياجيه أظهرت

بوضـوح الأمر الجلي الـذي يعرفه كل الآبـاء والمدرسـون الجديرون بهذا الاسـم، إننا نتعلم من خلال التعامل مع الأشياء والتفاعل معها، إن الذكاء المبني على الاستهلاك السلبي للمشاهد التلفازية وحدها والصوت المرافق لها يبقى ناقصاً، مهما كانت مضامينه رائعة.

كيف يؤثر الرائي على الأطفال؟

أربع طرق لتمثل وتبني العنف ينقلها الرائي عَدّدهَا المركز العالمي:

- التقليد: يجد الطفل نفسه في شخصية يقلد تماماً سلوكها، أو يتبنى آراءها، وهكذا يصبح أسلوبه في التقليد إرادياً.
- الاندماج: إن آلية التمثل والتقليد تحصل بدون وعي، فالطفل لا يختار قدوته.
- التشجيع: إن مشاهد معينة تحرض الطفل على القيام بأعمال ذات علاقة بها.
- التقبل: إن الطفل الذي تأقلم مع تكرار مشاهدة أعمال العنف، لن يستنكرها بعد ذلك، وسيعتبرها طبيعية.

المصدر: مجلة العلم والحياة، شباط 1994م.

والحـال هكذا، فالوقت الذي يقضيه الطفل أمام الرائي يزيد من سنة لأخرى، ولاشيء يسمح في الوقت الحالي بتوقع عكس هذا الاتجاه، إن بعض الأرقام التي تذكرها الطبيبة كارين بوتشي العاملة في الصحة المدرسية في مقاطعة جنيف تدعو إلى التأمل:

openkandil.com

- اعتباراً من السنة الثانية من العمر يُشغل الطفل جهاز الرائي بنفسه.
- 50% من الأطفال بعمر الثالثة يشاهدون الرائي يومياً.
- في عمر السابعة يقضي الأطفال الفرنسيون ساعة ونصف أمام شاشة التلفاز.
- ويزيد هذا الوقت إلى ساعتين وربع عند الأطفال بين 7 و 12 عاماً، ويصل إلى أربع ساعات في الأيام التي يوجد فيها دوام مدرسي.
- أما في الولايات المتحدة فإن متوسط المشاهدة اليومية للتلفاز على مدار السنة لمختلف الأعمار دون فصل حتى سن الحادية عشر يبلغ ثلاث ساعات و39 دقيقة في اليوم.

وعلى كل حال فإن الأرقام الجامدة ليست ذات قيمة كبيرة، والفضل يعود للجامعي الباريسي فرانسوا ماريه الذي وضح الطرق المختلفة التي يشاهد الطفل من خلالها التلفاز، إنه يُفرق بين طرق ثلاث ويصف آثار كل واحدة منها:

- التلفاز المعشوق، هو الذي نختاره مسبقاً، ومن أجله نوقف أي نشاط آخر.
- التلفاز حاضر الوجود، هو الذي نتركه يعمل دون أن نتابعه حقاً، والذي نعيره اهتماماً مختلفاً بحسب الفعاليات الأخرى التي نقوم بها بنفس الوقت.
- تلفاز ملء الفراغ، هو الذي نشاهده لأنه لا يوجد لدينا شيء أفضل نفعله، وذلك لقتل الوقت، أو للتخلص من عزلة بيت فاقد للعلاقات الحميمة، أو لنسيان ضاحية مدينة كبيرة خالية من وسائل الترفيه.

obeikandl.com

بحسب رأي ماريبه، فإن طريقة المشاهدة الأولى هي الوحيدة التي تكون على حساب النشاطات الأخرى التي يفترض أنها أكثر نفعاً، أما الثالثة فهي نتيجة لغياب جو يشجع تألق الطفل، والثانية فإنها لا تسيء لتطور الطفل، ويمكن لها أن تزيد كفاءته من خلال السماح له بالتخلص من «الوقت الممل»، ومن خلال تعليمه القيام بعدة نشاطات بآن واحد، مثل إصغائنا للمذياع عندما نقود السيارة، والذي لا يمنعنا من الانتباه للطريق، ولا من التهيئة للمحاضرة التي نذهب إليها، ولا من التفكير بعلاقاتنا مع الآخرين.

الافتتان بالرائي

العديد من الكتاب (جاك بيقتو، بروتو لوساتو، ليليان لوزيتا، إذا لم نرد أن نذكر سواهم) يؤكدون وهم محقون على آثار الرائي كمنوم مغناطيسي، ودون الدخول في تفاصيل عصبية مملة، فيكفينا أن نعرف أن النظر الثابت على ذبذبات مهبط كهرطيسي (علينا ألا ننسى أن الصورة التي تظهر على التلفاز تنتج عن نقطة وحيدة تجوب الشاشة بسرعة فائقة، وأن استمرار خيال هذه النقطة على الشبكية هو الذي يعطي الصورة) يولد حالة نصف وعي يترجمها بث موجات ألفا في الدماغ، وهكذا نصبح أكثر قابلية للتأثر بالإيحاء، وغير قادرين على القيام ببعض الوظائف مثل التحليل، أو بكل بساطة إيقاف التلفاز عن البث، هذه الظاهرة تطال خاصة الأطفال صغار السن الذين يسبب عدم نضجهم الفكري والعاطفي زيادة ضعفهم أمام التلفاز، وسنعود لهذا الموضوع عندما نتكلم عن ظاهرة العنف.

تأثير يشبه الإدمان

نقـارن أحياناً الرائـي بمادة مخدرة، وبالمراحـل المختلفة من الإدمان التي تنجم عنها: ومضة متعة هائلة، أو رغبة في استعادة ذلك الإحساس، وضـرورة زيادة الجرعة للحصول على التأثير البدئي، واستهلاك متزايد في مقابـل متعة متناقصـة، وأخيراً اعتماد كلي مع وجـود ظاهرة حرمان عند الفطام.

إن التشابـه بالتأكيد ليس مجانباً للحقيقة، ويستحق أن نركز عليه على الأقل من الناحية المجازية.

ولكـن يجب أن نبقى حذرين، فبوسعنـا أن نقول الشيء نفسه بخصوص نشاطات إنسانية أخرى مثل الرياضة ومنافسات المحترفين والموسيقى..... وحتى القراءة! وكي نبقى في مجال المقارنة مع المخدرات، فلنذكر أن ظاهرة الإدمـان لها علاقة بالمدمن بقدر ما لهـا علاقة بتوفر المادة المخدرة، فكثير مـن الناس يشربـون الكحول، ولا يصبـح معظمهم كحوليـين، وهذا يقودنا إلى تحديـد مجموعات هي أكثر عرضة لإدمان التلفاز، وإلى دراسة الوسط الاجتماعـي الاقتصادي، والتطور العاطفـي، والعوز التعليمي التي يمكن لها أن تخلق مشكلة مأساوية، يصبح إدمان التلفاز بجانبها أداة تسلية مُسالمة.

كل الدراسـات أو جلها تتفق على نقطة، تناسب مشاهدة الرائي عكساً مع المستوى الاقتصادي والاجتماعي، وإذا وفرنا على أنفسنا جهد الاطلاع على الأرقام، واكتفينا بخلاصات هذه الدراسات نجد مايلي: إن المستهلك الكبير للرائي يعيش في وسط فقير قليل الثقافة وغير مشجع كفاية، وضمن

عائلــة متفككــة، إن حل مشكلة المبالغة في مشاهــدة الرائي يمر عن طريق إصلاحات سياسية تتعامل مع أسباب الظاهرة وليس نتائجها، وبانتظارها يقــترح مارييه أن نترك التلفاز لهــؤلاء التُعساء بما أننا لا نستطيع أن نُعيد لهم آباءهم.

التلفاز والمطالعة والملكة الإدراكية

«إنهم لا يقرؤون، ولا عجب فهم مُسمرون طيلة الوقت أمام الرائي»

«لقد فقدوا كل قدرة على التركيز: شيء طبيعي وكيف لهم ذلك بحضور الرائــي، وتقليــب المحطــات، والدعايــات الإعلانيــة، والمشاهــد المتقطعة القصيرة... إلخ».

«إننا نقوم ببناء جيل من الأميين»

نسمع هذا النُواح من أفواه المدرسين والآباء واختصاصي علم النفس والعديــد من الاختصاصيين بشــؤون الطفولة، وكلنــا أو جُلنا عزف على هذا اللحن.

في يــوم من الأيــام، وبقناعات متفاوتة، متوجســين أحياناً خوفاً من أن نجــد أنفسنا في صــف المتزمتين مــن كل الاتجاهات، الرافضــين للتغيير، والمتمسكين بجنون «بالقيم المبدئية».

وعلــى العكس، فإننا أحيانــاً خضعنا لإغراء اتبــاع الدُّرجة (الموضة)، وتخلينــا عــن راية الآباء المورثــين للقيم، وقبلنا الأمر بُعجــره وبُجره كي لا يشعر الملاك الصغير بالحرمان.

ولكـن اطمئنوا فمهما فعلتم، فأنتـم تعكسون التناقض العام في الموقف مـن وسيلـة إعلام مـا زالت غـير معروفـة تمامـاً، إن مواقعنـا و أفعالنا المتناقضـة لا تختلـف عن آراء الخبراء والباحثـين في هذا المجال، من بين مُفرقـي الصفوف العنيفين في هجومهم على الرائي باسم الثقافة، يمكننا أن نذكـر رونيـه دوبو، وكتابـه ذا العنوان الكارثي «الجيـل الأخير للكتابة» وبرونـو لوساتـو وكتابه «ابن الشاشـة» فكل منهما ـ وبناء علـى أدلة مختلفة ـ يُحملـون التلفـاز مسؤوليـة كبـيرة في عدم قـدرة الأجيـال الصغيرة على الكتابـة، وبالاعتماد على الأرقام واستطلاعات الرأي والتقارير يؤكدان أن مهـارات الأطفال في التعامل مـع النصوص قد انخفضـت بشكل مأساوي خلال السنوات الأخيرة، والأكثر إثارة للقلق يكمن في الجدب الذي أصاب القدرة علـى التفكير الخلاق لـدى مدمني الرائي، وبسبـب عدم قدرتهم علـى الفهم العميـق، ومحدودية رؤيتهـم على المدى القصـير، وتجردهم مـن الخلفية الثقافيـة، وعلوقهم في اللحظة الراهنـة والنظرة السطحية، وعجزهـم عـن بناء فكر ناقـد متماسك، نجد الأطفال الذيـن تغذوا على حليب التلفاز ينحدرون على الهضبة الزلقة نحو الهمجية.

لا يمكننـا ـ كمـا يفعل البعض ـ أن نتجاهل هـذه الكلمات ببساطة، إن هذه التحذيرات يجب أن تحمل على محمل الجد، وتتطلب إجراءات وقائية أثنـاء القيام بتربية الأطفال، وسنعود لهذا الموضوع في الفصل الأخير من الكتـاب، ولكن الخوف المُربك ليس هو الحل، ويجدر بنـا أن نتقبل أشكالاً جديدة من التفكير والسلوك تُولد تحت أنظارنا، وسوف نشرح هذا التطور المطلوب في الفصـل المتعلق بالنواحي الاجتماعيـة للموضوع، في نظرنا إن الخطر الحقيقي والوحيد يكمن في محاولة رفض نوع من الثقافة باسم نوع

آخـر منها، وبشيء مـن المبالغة: القراءة أو الرائـي، والمكتوب أو الصورة، والثقافة أو الإحساس، والخطاب أو التعجب، والتحليل أو السطحية... إلخ. إن حـرب المبادئ التي بدأت بـين الحداثة الكاذبة التي تريد أن تتخلى عن الـتراث المكتـوب، والحنين إلى ماضٍ يُدَّعى بأنه جميـل، ماضي الحضارة الإغريقية اللاتينية، إن هذه الحرب لا جدوى منها، مثل كل الحروب.

وحتـى نبقـى في موضوعنا حول آثـار الرائي على الأطفـال، فلابد من أن نستوعـب حجـم هذه الظاهـرة، لا يمكننا أن ننكـر أن الرائي رغم أنه ينمـي قدرات فكرية أخرى، ولكنه يسيء لقابلية اكتساب التفكير المنطقي، والتمكن مـن الكتابة، بقي علينا أن نعرف إلى أي حد يتحمل التلفاز وحده هـذه المسؤوليـة، لأنه توجـد عوامل أخرى مؤثـرة وخاصة تفـكك الأسرة وغيـاب الأب (ظاهرة حللها بشكل جيد جداً كل من س و م. نباتي أو رغي كورنو). ولنعـبر عن هذا بطريقة مُبسطة، فإننا نقـول إن غياب الوالدين يدفـع إلى مشاهدة التلفاز الذي يلعـب دور الأم الحاضنة، وهكذا تضعف قدرة الأطفال على التواصل مع الآخرين، وهنا أيضاً نعود لمشكلة الأسباب والنتائـج، هل الرائـي هو الذي غير المجتمـع؟ أم أن التغير الاجتماعي هو الذي سبب إدمان الرائي؟

ظاهرة النموذج المُصَغَّر أو التصميم

إنـه برونو لوساتو الذي يعرض هـذا التعبير، وهو ترجمة حُرة لظاهرة «الاتجاه السائد» (Mainstreaming) وهي نظرية طورتها مؤسسة أنينبرغ للاتصالات في فيلادلفيا في تقرير لها عن الرائي في نهاية السبعينات، ما هذه الظاهرة؟

برونـو لوساتـو يقـول: «لا يقبـل الجمهـور التعقيـد والفـروق الدقيقة والمراجعة والاعتراف بالجهل والتأمل العميق في القضايا المهمة، فهو يريد تصميمـاً أو نموذجـاً ثابتاً، يمكنـه التعرف عليه بسهولـة مثل شخصيات وديكـور برنامجه المفضل، بألوانها الغامقة، هـذا التصميم يبنيه التلفاز: ويفـرزه بطريقـة لا شعوريـة كل من يشـارك في صنع التلفـاز، كما ينسج العنكبوت بيته.

هذا التصميـم يتضمن حزمة مُلونة من الأفكار المُسيطرة أو الهامشية (...)، ولكنـه لا يمثل الواقـع (...) إنه عبارة عـن (...) خارطة مُشوهة متجانسة مُلونة مُهَنْدَسَة، وتمثل مواقعاً غير موجودة!»

الكتاب والرائي: ليسا أعداءً إلى هذا الحد

(...) تُقـدم المنافسـة الشديدة التـي يمارسهـا الرائي كتفسير لتراجع المطالعة: يفقد الكتاب فرصته أمام التلفاز المستهلك للوقت.

إنها فكرة تأخذها دراسة المؤسسة الوطنية العليا للتربية والتعليم INSEE بعكس المقصود منها، تعلمنا هذه الدراسة أن الناس الذين يشاهـدون الرائي لمـدة ثلاث ساعات على الأقـل في اليوم لا يقرؤون كتباً أقل من الذين يشاهدونه أقل من ساعة!

إن الوقـت المأخوذ من قبل الرائي يكون على حساب قراءة أشياء أخرى غير الكتاب، « وذلك لأننا إما نحمي مطالعة الكتب بالمحافظة عليهـا، أو أن مطالعتنا للكتـاب قليلة جداً بالأصل ليتمكن التلفاز من الحد منها».

وعموما فـإن القراء والقـراء المكثرين من القـراءة نجدهم بين الفرنسيـين الذيـن يمارسـون عدة نشاطـات، الذهـاب إلى المسرح والمتاحـف والحفلات الموسيقيـة، إنه منطق التراكم الـذي يُسيطر: كلما كانت حياتنا الثقافية زاخرة، كلما زادت مطالعتنا للكتب...

«تراجـع القـراءة» مقـال كتبـه فرانسـوا دو سينغلي وكلـود تيلو وفرانسـواز دومونتييـه، في مجلـة الاقتصـاد والإحصـاء، رقـم 23 الصـادر في حزيـران 1990م نقـلاً عـن كريستـين غـران في «عالم التعليم» أيار 1991م.

كفاءات جديدة بفضل التلفاز؟

في الاتجـاه المعاكس لمهاجمي التلفاز يوجـد مؤلفون مثل: ميشيل ڤيريه وخاصة فرانسوا ماريه لا يترددون بالدفاع عنه.

الأول يشـير في كتابـه «الثقافة العماليـة» إلى أن الرائـي يحافظ على «العلاقة الأكثر مُساواة (...)، والأكثر حرية كذلك (لأنه بإمكان من يريد أن ينسحـب أن يفعل ذلك)، والأكثر انفتاحاً (لأن من يريد أن يقول كلمته يستطيع ذلك)».

أمـا الثـاني فإنه ينقض تعسف مصـادر «الثقافة»، التـي تشكل بنظره مجموعـة من التقاليـد البالية التـي يهاجمها الرائـي، إن بلاهة الأطفال المزعومـة التـي يسببهـا الرائـي هي غير موجـودة إلا في خيـال المدافعين عن نمـط حياة عفا عليهـا الزمن، باسـم رؤية محدودة للـذكاء تحصره في كفـاءات باليـة مصدرها الكتب، يجب على العكـس تشجيع الطفل على

مشاهـدة التلفـاز، لتحضيره للتمكن من التعامل مـع نظام اتصالات أكبر أداء، ولتدريبه على الخروج من عصر «الأحادية» التي رُبيت عليها الأجيال السابقـة، والتي تمنعها من القيام بعدة مهمات بـآن واحد، ومن العمل في أجواء الصخب، ومن التواصل بطرق مختلفة في نفس الوقت... إلخ.

قيـم كُنا سابقاً نبجلها، وكانت تعني قمـة الأداء يجب أن نتخلى عنها، ومنهـا: التركيز الذي يحصرنا في فعالية واحدة، ويُفوت علينا إدراك أهم مـا يحصـل، والسكوت الـذي لم يعد من الذهـب، والخيـار الوحيد الذي يجـب الالتزام به، بينما يمكننـا برؤى جديدة أن نقلب المحطات، وأن نغير البرنامج قبل أن نُضيع أمسيتنا.

إن التمسـك بالأشـكال التقليديـة للثقافـة واللباس والهمس المحترم للـكلام والأساليب المتكلفة... إلـخ. ليست بالنسبة لماريـه سوى واجهات خارجية، ولا يمكنها أن تعبر عن قيم فكرية أو روحية.

أما رتابة الزمن فيجب علينا أن نتخلى عنها وبسرعة، لحساب تقنيات حديثـة مثل جهـاز التحكم عن بعد، والفيديـو، فتسريع الزمـن أو إبطاؤه يسمـح بتغيير صحـي لِبُنيته الإدراكية، بالمـرور على ما ليسـت له أهمية، والتوقـف عند الأمور الأساسية، وإنجاز عـدة أعمال بآن واحد إذا لم يكن المشهـد مثيراً للاهتمام لحـد يُجبر على التركيز عليه فقـط، إن الأطفال الذيـن اكتشفوا منذ طفولتهم الباكرة هـذه التطورات الحديثة يستطيعون في نهاية المطاف امتلاك كفاءات لا نملكها.

أخـيراً يلاحظ ماريـه بالمناسبـة أن الأطفال الذين يدمنـون الرائي، ورغـم أنهم يبـدون ضعفاء أمام المكتـوب، ولكنهم يظهـرون أُميتنا، إنهم

يتقنون أكثر منا استعمال الأجهزة، ويكتشفون بسرعة كل خصائصها، في الوقت الـذي نكتشف فيه بصعوبة واحدة أو اثنتـين من تلك الخصائص، ونحن نحمل دليل الاستعمال بيدنا!

إن الحجـج التـي يقدمها ماريـه جديـرة بالاهتمام لأنهـا تذكرنا في الوقـت المناسب بنسبية المفاهيم مثل الذكاء، والصحة العقلية، والأعراف الثقافيـة والتطور... إلخ. وبالمقابـل فإنها لا تجبرنا على التخلي عن حسنا الناقد لمحدودية وسيلة إعـلام تحاول أن تحتل مكاناً على حساب الوسائل الأخرى، وأن تطغى بشكل غير مقبول على كل أشكال الحياة، وسنعود لهذا الموضوع في الفصل التالي.

العنف والتلفاز: الدليل الدامغ في الملف

إذا كان الشك لا زال مخيماً على آثار الرائي على ذكاء الأطفال، فإن بحوزتنـا الآن فرضيـات قوية تتعلق بالعنف المرتبـط بمشاهدة المشاهد المصـورة، إذا لم يكـن الرائي قادراً علـى تطوير الذكاء ـــ إن الرائي لا يجعـل الطفـل أكثر غباء كمـا أن الاستمنـاء لا يسبب الطرش ـ ولكنه لسوء الحظ يوقظ اندفاعات العنف النائمة في أعماق كل مشاهد، وهذا لسببين على الأقل.

أولاً: عـدم القدرة على تفريـغ الشحنة العاطفيـة المتراكمة بالتسجيل العفـوي لمشاهد لا نتحكـم بها، والذي يسبب تأجيجـاً لا يُنكر للعنف الذي سيظهر بطريقة فظة عاجلاً أم آجلاً.

العنف اليوم

في مجتمعاتنا المعاصرة، يُعبر عن العنف بطقوس أصبحت أكثر تعقيداً، السباق على تحصيل الشهادات، والمطامع الشخصية، والاستهلاك التفاخري، والمنافسة الاقتصادية، والإبداع الفني، والفكاهة، والرياضة.... وكل هذه الفعاليات تمارس ضمن مؤسسة خاصة لها قواعدها وتسلسلها الإداري: المدرسة، والشركة، والمركز التجاري.

ولكن هذه الممارسات التي أصبحت أكثر تعقيداً وتقنيناً تسبب اضطرابات مثل الشدة النفسية، وفعاليات أقل «شرعية» تظهر متحدية نظاماً اقتصادياً أو بيروقراطياً ساحقاً: الإستراتيجيات غير المؤذية الصغيرة (التغيب والخداع والغش)، و«الجريمة الاقتصادية» (سرقة الأشياء المعروضة، وخداع شركات التأمين والغش الضريبي)، وتخريب النفائس، كل هذه المظاهر في زيادة واضحة بينما يميل العنف الجسدي (القتل، والاعتداء بالجرح والضرب) إلى الانخفاض في أوروبا رغم المخاوف المبالغ بها لبعض الأوساط الإعلامية (باستثناء المدن الكبيرة حيث زاد العنف الجسدي في العقود الأخيرة، ولكن دون الوصول إلى مستويات القرن الماضي).

وما يدعو للاستغراب هو الشعور الشخصي بعدم الأمان في الوقت الذي يزيد فيه الأمان فعلياً، إن العنف المادي والجسدي قد استُبدِل جزئياً بعنف خيالي رمزي يسمح باستمرارية الأسطورة المؤسِسَة (قتل قابيل لهابيل).

فرنان وتيه، عالم اجتماع، مجلة المعلم، أيلول 1991م.

Revue Educateur, September 1991.

ثانيـاً: لابـد أن نكون سيئي النية لندعـي أن العنف لا يُبجل في البرامج والأفـلام والمسلسـلات... إلـخ، التي تُعرض على المشاهديـن، والبرامج المخصصـة للأطفال لا تشذ عـن هذه القاعدة، وتحوي كمـاً من المشاهد العنيفـة الذي لا يمكن مقارنتـه بالعنف الموجود بوسائـل الإعلام الأخرى والألعـاب والنشاطـات، إننـا نضرب ونقتـل وندمر ونفجـر ونبيد ونعذب بكـثرة لا نشاهدهـا في الحيـاة اليومية لأطفالنـا (رغم أن بعض أشكال العنـف المستور موجودة). عندما يصل صدى صوت التلفاز لأسماع الكبير الـذي أوكل للرائي مهمة شغل صغيره، فإنـه لا يسمع غالباً سوى صرخات الرعب، وعويل الحقد، وأصوات انفجار قذائف الأسلحة المتطورة، وصفير الصواريـخ، وطقطقـة الرشاشات، أمـا الأطفال البؤسـاء فتقع نظراتهم الحائرة القلقة على مدن مخربة، وسجناء تُساء معاملتهم، ووحوش قبيحة في خدمة قوى الشر.

ويـردون علينـا، بأن هذه الأمور ليست سـوى محض خيال لا يمكن تحقيقـه يستطيـع الأطفـال حمله علـى هـذا المحمـل، بالتأكيد ولكن النمـاذج القصصيـة والمواقـف النموذجية توحي بإصـرار أن اللجوء للقـوة يحـل كل المشـكلات، و أن الحـل هـو دائمـاً «حل جـذري»، إذا سمحتم لنا باستخدام التعبير، إن أسوأ ما في الأمر لا يكمن في التمييز بـين الحقيقة والخيال. فلا يوجد تلفـاز بدون عنف؛ لأن طبيعة العنف تشاهد عن بعد.

إفريقيا؟ صراع قبلي، ومرتزقة يعيشون على أمجاد الحقبة الاستعمارية، والمجاعات، أمريكا اللاتينية؟ تجار مخدرات وحرب عصابات، نيويورك؟

لصوص وأسواق تجارية تتفجر، ولا يهمنا عن بركان سوى معرفة عدد الضحايا الذين سقطوا عند اندفاعه الأخير، وما زالت صورة الطفلة الكولومبية التي تحتضر في الوحل النازل من مرتفعات نيڤادو دِل رويز حاضرة في ذاكرتنا، كل هذا موجود بالطبع، ولكن رفع قيمة العنف وقيمة المعاناة والضعف البشري، وتشجيع الحقد الأعمى لا بد له أن يغير في النهاية نظرتنا للعالم من حولنا، إن التعامل مع الآخر المبني على الخوف لا يمكن له أن يُولد السلام والتعاون، ومن نافلة القول إن نؤكد أن الطفل هو الأكثر عرضة للتأثر بما يرى، وخاصة إذا كان يتلقى هذه الرسائل وهو في حالة تشبه التنويم المغناطيسي المذكورة سابقاً.

هل هي آثار قابلة للقياس؟

العلماء الذين لا يكتفون بالانطباعات العامة وضعوا بروتوكولات تجريبية مختلفة ليظهروا بالأرقام العلاقة بين الرائي وظاهرة العنف عند الأطفال.

وقد يكون من المفيد بهذه المناسبة أن نقوم بجولة منهجية صغيرة لنفهم قيمة وجود التجارب «المخبرية».

يجب أن نُذكر أولاً كما يفعل كل الباحثين الأمينين بأن ظروف التجارب مهما حاولت أن تعكس الحقيقة فإنها تبقى غير مطابقة للواقع، ولذلك وجب علينا أن نكون حذرين جداً عند استخلاص النتائج، وكذلك علينا ألا يغيب عن بالنا أن «العلوم الإنسانية» لا تشابه تماماً «العلوم الدقيقة». فعدد العوامل التي تتدخل في السلوك الإنساني تبقى غير محددة وخارج حدود السيطرة مهما كانت الاحتياطات المتخذة والإجراء المُتبع. وأخيراً فإن من

أشـد الصعوبات تفريق المسؤولية المباشـرة (لأن الأطفال الذين يشاهدون الرائـي أصبحوا عُنُفـاً) عن العلاقة الممكنـة (الأطفال العُنُـفُ يشاهدون الرائي أكثر من غيرهم)، وعن العاقبة (لأن الأطفال عُنُفٌ فإنهم يشاهدون الرائـي). ومن الأمثلـة البسيطة جداً في الحذر المطلـوب أمام استنتاجات الباحثين الدُعابة الآتية: «هل تعرفون السبب الأول للطلاق؟ الزواج!». يجب أن يكون لدينا نفس الشك فيما يتعلق بالإحصائيات التي يمكننا من خلالها أن نستنتـج الشيء وعكسه، إن لم نكـن مزودين بمعارف أساسية، بإمكاننا توضيح هذا الخطر من خلال الإحصائية الآتية: «دراسة (هـ) التي تقوم بها المؤسسـة (ي) (مثلاً في مدينة أمريكية مشهورة) الاختصاصية بالأبحاث حول الإدمان أكدت أن 96% من حالات الوفاة التي سببتها جرعة زائدة من الهيروين، كانـت عند أشخاص رضعوا من أمهاتهم مرة واحدة على الأقل خـلال السنة الأولى من حياتهم». هذه الإحصائية الصحيحة بحد ذاتها لا تسمـح باستنتاج نتائـج محتملة إلا إذا قارنا المعطيـات بمعطيات مجموعة شاهدة، فإذا بقيت النسبة نفسها عند الناس الذين لا يتعاطون الهيروين، فـلا يمكننا بطبيعة الحال أن نستنتج أي شيء بخصوص دور حليب الأم في الوفاة من جرعة الهيروين الزائدة.

إن هذا التوضيح لابد منه قبل أن نطلع على بعض الأبحاث التي أُجريت حـول موضوع العنف المتعلق بمشاهـدة الرائي من قبل الأطفال، وذلك إذا أردنا أن نتجنب الوقوع في فخ العلم الكاذب.

الأبحاث والنتائج حول ظاهرة العنف

إن التساؤل المطروح حول تأثير المشاهد العنيفة على مشاهدي التلفاز ليس حديثاً: فمنذ 1916م، صنفت دراسة فرنسية السينما «كمدرسة للانحطاط

والجريمـة». إذا كانت هذه العبارة المختصـرة تجعلنا نتبسم اليوم، خاصة إذا فكرنـا بالمشاهـد البريئة لأفلام تلك الحقبة، ولكنهـا تشعرنا بضرورة إعادة النظر والتفكير الرصين بالتغير الذي طرأ على مجتمعاتنا.

كانـت أُولى الدراسات المجراة على ظاهرة العنف أمريكية، ثم أجريت دراسـات في بريطانيـا، وأخـيراً في دول أوروبـا الأخـرى، ومعظمها تبقى متأرجحـة في استنتاجاتها، رافضةً أن تُلقـي باللائمة كلها على التلفاز في الزيادة المتوقعة عند المشاهدين صغار السن.

ولذلك فإننـا سوف نصل إلى استنتاجاتنـا الخاصة من خلال دراسة العناصر المهمة لهذا الملف.

أولاً: هـذا الرقـم المجرد الـذي تذكره مجلـة تربويـة أمريكية في عام 1985م: «(...) يشاهـد الطفل الأمريكي العادي 18... جريمة قتل قبل أن يُنهي دراسته الثانوية». والسؤال الذي يظهر على السطح مباشرة هو:

لمـاذا؟ لماذا هـذه «670 جريمة قتل، 15 حادثة اغتصـاب، 848 شجاراً، 419 تبـادل إطـلاق نار أو انفجاراً، 14 عملية خطـف، 11 حادثة سرقة تحت تهديد السلاح، 8 حوادث انتحار، 32 عملية خطف رهائن، 27 مشهد تعذيب، 18 مشهـد تعاطـي مخـدرات، 9 حـوادث رمـي نفس مـن خلال نافـذة، 13 محاولة خنق، و 11 مشهداً لمعارك حربية (...) المشاهد التي أحصتها المجلة الأسبوعية لوبوان Le Point عن محطات التلفاز الفرنسية خلال أسبوع؟

قبـل أن ندعي شـرح أو تفسير أي شيء لدى الطفـل، لا يمكننا تجاهل هذه المشكلة الفلسفية: لماذا يجد الشر والمعاناة والدناءة هذا الصدى عند الطفل الذي ندعوه اعتباطاً بالحكيم؟

obeikandl.com

إنــه ليس من حق مُؤلِفَي هذا الكتــاب أن يعطوا جواباً لكل سؤال يخطر ببــال أحدنــا، ولكن وضع الطفــل في ظرف عام حيث المنافســة، والصراع العنيف بهــدف السيطرة، والاصطفاء الشديد، والعنف على كل المستويات (السياسية والاقتصادية)، والشدة النفسية، والخوف من الفشل (انتحار طلاب المدارس في اليابان)، وتبجيل النجاح و «العراك» («إنه رجل مكافح، أو مندفع بجموح») يتم تقديرها كمُثُل عُليا. ومن قبل من؟ إن لم نكن نحن الكبــار؟ لا شــك في أنه نوع مــن السذاجة أن نخُلي أنفسنا مــن المسؤولية، ونحاكــم الأمــر كقُضاة ولنضيــف المزيد من التشــاؤم نريــد أن نحدد أن الطفل ليس بريئاً تماماً، وأن الشر يجذبه أحياناً أكثر من الخير ... تناقض تعرض له المدرســون والآباء في يوم من الأيام، ولنعــود إلى صلب الموضوع يجب علينا أن نركز على الأبحاث المجراة في المخابر، دون أن نهمل الجانب المصطنع للحالات المذكورة.

جهاز الفيديو كوسيلة مضادة للعنف!

(...) كالكثير من الآباء لست ضد التلفاز من الناحية المبدئية: فأنا أحاول أن أتعايش معه، وأندفع نحو كل ما يُنشر في المكتبات والمجلات حــول مضار وفوائــد الشاشة الصغيرة المتعلقة بأبنائــي الصغار. إنه مــن الصعب أن تكــون حكماً في المباراة بين سيغولــين روايال (سئمنا من الأطفال الذيــن يقلبون المحطات طوال الوقت) و فرانسوا ماريه (دعوهم يشاهــدون التلفاز). من المستحيــل الفصل في الموضوع لأن الحجج المتناقضة والقطعية يقدمها المختصون من الطرفين: «العنف في الرائي يؤدي إلى العنف في سلوك الأطفال» وبالمقابل «ليس لمشاهد

العنف في الرائي أي أثر يؤدي إلى العنف في سلوك الأطفال» بل يمكنها على العكس أن يكون لها أثر مُفزِغ صحي».

وهكذا فقد بينت فلسفتي الخاصة، إن الاغتصاب الجماعي لفتاة ضالة مدمنة على الهيروين من قبل عصابة من أصحاب الرؤوس المحلوقة في مقبرة سيارات في دوسلدورف (ألمانيا)، أو المجزرة بمنشار الشجر لعائلة من طائفة المورمون يقوم بها رجل بين الحياة والموت في عشية عيد جميع القديسين في مدينة سولت ليك (إنني أخلط الأشياء قليلاً، ولكن الفكرة العامة موجودة). حسناً فأنا لا أظن صراحة بأن هذه الأمور جيدة لنفسية أطفالي الصغار الهشة، ومن يدري ربما تكون مؤذية لأدمغتهم القابلة للتأثر، وكذلك ولكي أحميهم من اللقاءات السيئة على المحطة الخامسة والسادسة فإنني أتحرك.

إنني أستأجر أشرطة فيديو «للأفلام العالية الجودة المنتجة في هوليوود» في مراكز VO (الحصول عليها ليس سهلاً ويحتاج لمتطوع لجلبها؛ ولكن العناء يكمن في إعادتها قبل إغلاق المتجر المزاجي). إنني أقوم بكفاح ملحمي بمساعدة جهاز الفيديو المبرمج لتسجيل تسع فترات بث خلال 18 شهراً، ولكن أنسى دائماً تسجيل الفيلم الوثائقي التعليمي الجذاب على المحطة السابعة. ويساعدني في ذلك أصدقائي المزودون بالكابلات في المقاطعات المجاورة.

إن هذه الفعالية تضع الإنسان تحت شيء من الضغط النفسي، ولكنها تستحق العناء، فقد وصلت إلى إضعاف التلفاز الذي لم ينجح بإيقاع أبنائي في شباكه.

obeikandl.com

في عام 1961م درس باندورا (الولايات المتحدة) وغيره سلوك أطفال مع لعبة تدعى «دمية بوبو» Bobo Doll بعد مشاهدتهم للعنف على الرائي أو غيره، وكانت استنتاجاتهم واضحة تماماً: إن العدائية لدى الأطفال الذين شاهدوا المشاهد العنيفة كانت أكبر منها لدى الأطفال الذين لم يتعرضوا لهذه التجربة، وهناك ملاحظة جديدة بالاهتمام: كان العنف الذي أبداه الأطفال تجاه اللعبة أكثر شدة، كلما كانت همجية المعتدي في البرنامج المشاهد موضع تقدير.

لجأ بيركوفيتش لنفس الأسلوب في نهاية السبعينات لدراسة العنف عند الأطفال الآخرين في الولايات المتحدة وبلجيكا، وهناك كذلك كانت النتائج غير قابلة للنقاش: كانت العدائية الجسدية والقولية أكبر عند الأطفال الذين شاهدوا أفلاماً عنيفة، مقارنة بتلك المشاهدة لدى الأطفال الذين تابعوا مشاهد عادية محايدة، وبحسب علمنا فإن بيركوفيتش كان من أوائل الذين أظهروا أن العناية التربوية تؤثر على درجة العنف عند الأطفال الذين يتعرضون لنفس المشاهد، ولكن لابد لنا من أن نخفف من حدة هذه الملاحظات فكما يقول هوزمان: «لاشك أن تعريض الأطفال لرؤية العنف في فيلم أو برنامج تلفازي في أجواء المخبر الخاصة يزيد من احتمال تصرفهم بعدائية بعد هذه التجربة».

إن المرحلة التالية هي دراسة تأثير المشاهد العنيفة على المدى البعيد، خارج النطاق المصطنع للمخبر، وفي الحياة اليومية للأطفال، إن أبحاث بلسون المجراة على 1565 صبياً في مدينة لندن تتراوح أعمارهم بين 12-17 سنة (في عام 1978م) تبقى مثلاً يحتذى، وتظهر بوضوح وجلاء

حقيقة زيادة السلـوك العدائي عند الصبية الأكثر تعرضاً من ناحية الكم للمشاهد العنيفة، إضافة لذلك يثير بلسون احتمال وجود علاقة بين درجة عنف الشبـاب، وطبيعة البرنامج المعروض، ويبـدو أن هذه العلاقة تزداد قـوة، كلما كان العنف « ملموساً» وغير مبرر ومغلفاً بالمكر والخديعة، بينما يكون العنف في الصور المتحركة وأفلام الخيال العلمي أقل ضرراً.

كلما زاد عدد أجهزة التلفاز في بلد زاد القتل فيها

جرائـم القتل المرتكبة في كنـدا و الولايات المتحـدة زادت بنسبة 93% بين دخول التلفاز في عامي 1950م و1970م، وفي جنوب أفريقيا حيـث لم يسمح بدخول التلفاز حتى عام 1975م، نلاحظ وجود نفس الظاهـرة: بعد مرور 12 عامـاً ازدادت نسبة القتـل 130%. هذا ما أظهرته دراسة أجراها براندون سنتروول في جامعة واشنطن.

المصدر: مجلة العلم والحياة، شباط 1994م.

وبحسـب رأي بيلسون فإن آليـة «رفع حرج» هي التي تفسر الانتقال إلى الفعـل، فالحواجز المعتادة التربوية و الاجتماعيـة تنهار تحت تأثير السيل المستمر من المشاهد العنيفة التي يرفع التلفاز من قيمتها.

وبإمكاننـا أن نعـدد الأمثلة التي تؤدي إلى استنتاجـات مشابهة، ولكن الأهم هو اكتشاف ظروف نشوء هذا العنف، وهنا نجد الدور الرئيس الذي تلعبـه الصحبـة العائلية والتربويـة التي يعبر عنها بجـلاء كل من إيرونز وهيوزمان.

«كلما قل اهتمام الأهل بالطفل وقل حنانهم، قل اقتداؤه مَثَلَ أحد الأبوين، وزاد عنفه في المدرسة ، إضافة إلى أن العقوبات ــ وخاصة الجسدية ـ التي يفرضها الوالدان تصبح مثلاً يحتذى في السلوك العدائي لدى الأطفال».

هذه النظرة تؤكد تعقيد أسباب ظاهرة العنف، ودون أن ندعي الحسم في المسؤولية النسبية للتلفاز، فبإمكاننا أن نؤكد أن التلفاز ليس سوى عنصر في لوحة اجتماعية تلعب فيها عوامل مثل الحب والتربية (التي يصعب قياسها «علمياً») دوراً حاسماً.

عمر الأطفال وجنسهم

يظهر من خلال الدراسات أنه كلما كان التعرض للعنف مبكراً، كانت الآثار أكثر سلبية، وذلك بسبب عدم نضج الطفل الذي نوهنا إليه سابقاً، إلى جانب كون البنات أكثر مقاومة من الصبيان، والأمر يستحق أن نتوقف قليلاً عند هذه الملاحظات البسيطة؛ لأنها تسلط الضوء على أثر العوامل الأخرى التي يمكن لها أن تولد العنف.

إننا نعرف منذ زمن طويل أن الأطفال الصغار يتعلمون بالتأثر من جهة وبالتقليد من جهة أخرى، وفي عمر لم يتمكن فيه المنطق والتفكير والحزم بعد، يبدو منطقياً أن خطر تعرض الطفل لمشاهد عنيفة لا يمكن السيطرة عليه، فإذا كان منغمساً في جو من العدائية عدة ساعات في اليوم، فيمكننا أن نراهن بثقة على أن الطفل سيعبِّر بطريقة ما أو أخرى عن العواطف المتراكمة، إن الأحداث الجديدة المتعلقة بجرائم ارتكبها أطفال وتشابه

أمثلة عرضها التلفاز تؤكد هذه الفرضية، أما المقاومة الأفضل التي تبديها البنـات ـ دون استبعاد الأسبـاب المتعلقة بالمورثات ـ فيمكن تفسيرها على الأقـل جزئياً بتركيـز أضعف على تقدير القوة كوسيلـة لحل النزاعات في نظامهن التربوي.

الآثار «غير العنيفة» للعنف التلفازي

ركز الباحثون كثيراً في أبحاثهم على العنف المولد للعنف، أما الأبحاث المجراة على النتائج الأخرى لمشاهدة الصور العنيفة فهي قليلة.

ليليـان لورسا الاختصاصيـة بعلم الاجتماع، والعاملـة كمديرة أبحاث في مركـز الأبحـاث العلميـة الوطنـي الفرنسـي CNRS، هـي دون شـك الأكثر دراسة (فيما يخص فرنسا) للتجربة التلفازية عند أطفال مدراس الحضانـة. وقد اهتمت خاصة بالقلـق الذي تبعثه مشاهدة رسوم متحركة عنيفـة مثل غولدوراك، بيومـان أو فرسان زودياك الأكـثر رواجاً في ذلك الوقـت. ومن خـلال حوار متتابع مـع 421 طفلاً من مستويـات اجتماعية مختلفة، أظهـرت وجود صدمـات نفسية حقيقية عند الأطفـال الصغار، وخلطاً خطيراً بين الواقع و الخيال.

وبرأي ليليـان لورسا، فإن الآباء والبالغين عموماً يقللون من أهمية وخطـورة عرض المشاهد العنيفة علـى التلفاز، وتأثيرهـا المديد على نفسيـة الطفل، وقـد لاحظت أن الضـرر يزداد كلما نقصـ الاهتمام والحنـان المقدم مـن جانـب العائلة، وأنـه يختلف باختـلاف الوسط الاقتصادي الاجتماعي الذي ينتمي إليه الطفل.

وبعد أن تركت جانباً الأبحاث المخبرية، أو العبث بالإحصائيات، قامت بجمع صبور لشهادات أطفال تصدم ببساطتها، وبعيدة جداً عَمَّا كان يتخيله المدرسون والآباء، إنها تتناول ظاهرة الانبهار التي تعرضنا لها سابقاً، والأفعال نصف الواعية اللاشعورية التي لا سيطرة للوعي عليها. ومن هنا يأتي الخطر الذي يمكن حصره بوسيلة الإعلام التلفازية. فعندما يقرأ الأهل القصص للأطفال، فإن الصلة بالواقع قائمة، ولا يحصل الأثر المنوم مغناطيسياً؛ لأن علاقة الحب محترمة. أما عندما يقرأ الطفل بنفسه فعلية أن يبذل جهد تركيز يمنع الإيحاء، ويبقيه في حالة يقظة واقية، وهذا بالضبط الأثر الذي يجهله الأشخاص المهتمون (أو غير المهتمين) بالأطفال الصغار.

إن ما يميز معظم الأبحاث المتعلقة بهذا الموضوع هو المقاربة الشخصية، أو صغر المجموعات المدروسة، وبهذه المناسبة فمن المهم ذكر دراسة براندون سنترول التي أجريت في جامعة واشنطن، والتي لا تقوم على دراسة عينة مختارة وإنما مجموع سكان البلدان الثلاثة: كندا والولايات المتحدة بين العامين 1950م و 1970م، وجنوب أفريقيا بين العامين 1975م و1987م، إلى ماذا تشير هذه التواريخ؟ إلى المدة الفاصلة بين دخول التلفاز وبين بداية حساب عدد جرائم القتل في هذه البلاد المختلفة. بالنسبة للبلدين الموجودين في أمريكا الشمالية، يمكننا الكلام عن زيادة قدرها 130%. إن تطابق المنحنيات للدارسين يظهر أن الفاصل الزمني بين الظاهرتين واحد، مما يقترح وجود علاقة بين وسيلة الإعلام هذه، وازدياد ظاهرة العنف.

الحقيقة المجردة: ميتران هو عبارة عن ضفدع

في مدرسة لحضانة الأطفال في هذه السنة التي تصادف الذكرى المئتين لاندلاع الثورة الفرنسية، تتساءل المدرسة: «هل فرانسوا ميتران ملك؟». وتجيب جوقة الأطفال الصغار ذوي السنوات الأربع ببراءة متعجبة: «لا! إنه ضفدع!». أليسَ برنامج «عرض الحيوانات» حيث يُعرض رجال السياسة على شكل عرائس مسرح هو أحد البرامج الأكثر شعبية؟

إن المناسبة للتعرف على المصدر الأول للمعلومات بالنسبة لهؤلاء التلاميذ الصغار تُتاح بشكل رائع، ولكن الجميع يعلم أن المدرسة والتلفاز ليسا في حالة وفاق، و لما أخذا قراراً بالزواج لتأسيس التلفاز المدرسي، فإن هذا الزواج لم يأتِ بنتائج طيبة، في الولايات المتحدة «افتح يا سمسم» («المدعو 1، شارع السمسم» في محطاتنا التلفازية) تم تصميمه لمساعدة الأطفال من الشرائح الاجتماعية الفقيرة، والذين لا يرتادون المدرسة على التجهز لدخولها.

وقد تبين من خلال التجربة أنها أفادت الأطفال في الطبقات الموسرة أكثر من الأطفال الفقراء، وخاصة بوجود شخص بالغ يشجعهم.

التلفاز ليس ديموقراطياً، ومن ثَمَّ فالمدرسة هي الوحيدة القادرة على استبدال الوالدين الغائبين أو اللذين لا يقومان بدورهما. وبالإجمال فالمدرسة لم تتخذ قراراً بعد بإعطاء التلفاز حق المواطنة. ذلك التلفاز الحقيقي الذي صنع ليُسلي، و ذلك الذي يجعل الأطفال يبدعون، هل هو حقيقة مستحيل استغلال هذا الحماس؟

العديد من المدرسين لم يعرفوا غولدوراك إلا عن طريق «اللوحات الحرة» في صفهم، لماذا يستمر المدرسون بالطلب من تلاميذهم أن يخبروا كيف قضوا يوم الأربعاء؟ ويرفضون بنفس الوقت سماع حديثهم عن أبطالهم المفضلين، أو عن لوي دو فينِس الذي شاهدوه ليلة البارحة؟

مارتين ڤالو، عالم التربية Le Monde de l`Education june 1989

التأثير المُفَرِغ للعنف التلفازي

بحسب نظرية التنفيس، وهي كلمة لاتينية تعني بالدقة «التنقية»، يُحرر العنف المُمَثَل المُشاهد من الدوافع الهدامة التي يحملها بين جنبيه. ويبدو أن هذه المُقاربة مقنعة عندما يتعلق الأمر ببالغين يشاهدون فلماً ذا مستوى فني عالٍ (مأساة يونانية على سبيل المثال)، ولكنها لا تنطبق على وسيلة إعلام «مؤثرة» كالتلفاز، ولا تنطبق خاصة على أطفال قدرتهم على استيعاب التعبير الرمزي محدودة جداً، ففي كتابه «الإنسان العدائي» يدعم بيير كارلي على العكس فكرة «أن التنفيس يسبب غالباً تقوية السلوك العدواني، ومن ثم زيادة احتمال نقله إلى الواقع».

أما ليليان لورسا فهي بدورها ترفض كذلك فكرة التنفيس، تستنتج ـ إضافة للعديد من الباحثين الأمريكيين والأوربيين ـ أن للتلفاز تأثيراً مُكبراً على الأطفال، وإن كان هذا الأثر لا يؤدي بالضرورة للقيام بما يشاهدون.

تغير التصورات

دون الدخول في تفاصيل الطريقة التي تستخدمها ليليان لورسا وآخرون، يجب التأكيد على الفوضى التي يسببها العنف المعروض على

التلفاز على تصور الأطفال للواقع، فإضافة للخلط بين الواقع والخيال المذكور سابقاً، يُلاحظ وجود عدم قدرة على الوصف المرتب، وصعوبة في تقمص الشخصيات بطريقة بناءة (كما يحدث عند سماع أساطير الجنيات مثلاً)، وذوبان الشخصية التي مازالت هشة عند الأطفال الصغار، وتشوه في استيعاب الزمان والمكان... إلخ، دون أن يستطيع الباحثون تحديد الأسباب، وكونها مرتبطة بشكل أو محتوى البرامج (دون شك، الاثنان يؤثران).

وهنا كذلك يبدو جلياً أن غياب الأثر المُعادل العائلي والمدرسي، الذي يوازن التأثيرات المنحرفة لبرامج سيئة التصميم، وفي وسيلة إعلام يصعب التحكم بها، هذا الغياب سيكون عاملاً يزيد الوضع سوءاً، يبقى علينا أن نعيد السؤال الأبدي والذي لا يمكن الالتفاف حوله: هل التلفاز أداة سيئة لحضارة جيدة؟ أم أنه على العكس المثال الحي لثقافة فقدت معالمها، وانطلقت بمضاء على طريق منحرف؟.

في محاولة لإنهاء الموضوع دون الوصول للاستنتاج

يمكننا أن نتابع بالتأكيد لعبة ذكر الأقوال والمراجع المتناقضة إلى ما لا نهاية، وذلك بهدف دعم موقعنا المساند أو المعارض للتلفاز، ولكننا لسنا ملزمين بالاستناد دائماً لدراسات الآخرين، وأن نكون الناطقين باسمهم. فأطفالنا وتلاميذنا، وأطفال معروفون أو غير معروفين لنا يكبرون تحت سمعنا وبصرنا، إضافة للطفل الذي ما زال حياً في أعماقنا كبالغين راشدين، يكفي أن نلاحظ ما فينا وما حولنا لنستوعب الحقيقة.

مـاذا نرى؟ أن حقـل رؤيتنا أوسع بكثـير من أكثر الشاشـات اتساعاً، وأن المعلومـات التـي نحصل عليها من الواقع المُعاشـ تفوق جداً كماً وكيفاً الاهتزازات الضوئية التعيسة لأشعة مهبطية على شاشة ذات 625 أو 819 خطـاً. وأن التلفـاز لـن يستبدل أبداً نضـارة صباح مشـرق، ودفء جسد يلتصق بك، وعبق غابة بعد هطول المطر.

إن ذكرياتنا الأكثر غنى مصدرها أناس أحباء إلينـا و أعمـال تربينا، وأمكنـة وجدنـا فيها طعم الفردوس الضائع، وربما كتـاب غدا صديقاً لنا.

بالمقابـل لا يترك سيل المشاهـد التلفازية التي يمحـو بعضها بعضاً في جـو من العبث السطحي أي أثر ـ بطبيعـة الحال زائل ـ على رمل الذاكرة القريبة، حتى العنف عندما نحرره من سجنه الضيق يصبح فرصة للسمو والارتفـاع، فعندما نناضـل لقضية سامية مع رفـاق بلحمهم ودمهم، لابد لنا من اختبار الواقع، واكتشاف الممكن، ومواجهة الصعاب، وتقدير فرص النجـاح، والحزم في الأمور... إلـخ، إن التأثير الأسـوأ للتلفاز على الطفل ربمـا ينتج عن حرمانه مـن الخير الكثير باحتلالـه كل الزمان والمكان في نفسه أو روحه، أكثر من كونه ناتجاً عن «الإثم» الذي يرتكبه.

كم من الصداقـات نخسرها بسبب شبح شخصيـة خيالية سيئة؟ كم مـن الاهتـزازات فوق ماء النهـر نسيناها بسبب برنامـج تلفازي؟ كم من الحـب خنقناه ضمن جدران أربعة لفرقة سيئة التهوية؟ وكم من العواطف أطفأناها بتلفاز يشتغل؟

إننـا لا نحمي الطفل من هـذه المضار بالمنع من المشاهـدة، أو بإعطاء دروس مبادئ و أخـلاق، إننا لا نبعد الشيطان بجلسات هدفها طرده، كما أننـا لا نقضـي على الكذب بالطرد مـن رحمة الله، إن حـل المشكلة يكمن أولاً في تصفيـة الأمور مع النفسـ أولاً، ومعرفة ما نريد أن نعطي للآخر أو ننقـل إليه، إذاً يجب أن نمتلـك هذا الشيء وأن نحيـاه بأنفسنا، ثم نتعلم كيـف ننقله للآخرين، وأن نستعيـد دورنا كأم وأب ومدرس و صديق، ذلك الـدور الذي لم يكن علينا أن نتخلى عنه أبداً، وهكـذا يبقى التلفاز جهازاً بـكل بساطة، مع كل محدوديتـه وحسناته، وقدرته علـى التسلية والإخبار والتعليم،وعجزه التام عن منح الحب والحياة.

كيـف يكون تحقيق ذلك سيكون عنوان الفصل الأخير من هذا الكتاب، الذي ستكونون أبطاله.

obeikandl.com

وهكذا سوف
تستمعون إلي؟!
باريش

obeikandl.com

«الساعات التي يقضيها الأطفال أمام التلفاز هي عبارة عن مادة مخدرة خفية يستخدمها الأبوان، فالأطفال الصغار بمجرد وجودهم مرتاحين على أرضية البيت الخشبية أمام شاشة التلفاز، يعم مباشرة صمت مطبق رائع ولكنه مُريب...»

مقولة مستقاة من جريدة نيويورك تايمز عام 1948م!

الفصل الخامس

التلفاز والحياة الاجتماعية والطفل في هذا الخضم

إن خطورة التلفاز لدى الأطفال ـ أو هيمنته عليهم إذا أردنا ـ تدعو إلى القلق.

إن القلقين وربما المهاجمين في المقام الأول هم الوالدان والمدرسون. وهذا أمر منطقي جداً: فهذان الصنفان من الكبار يعيشان يومياً التطور الحاصل في عالم الأطفال المحفوف بالتيهان والمخاوف والفرحة والقيود. فالمدرسون الذين يقومون بمهمة التربية يرون بانزعاج ممزوج بالاحتقار أو الذعر الأطفال الذين أُوكلوا إليهم من قبل المدرسة يصرفون وقتاً متزايداً من فراغهم أمام أجهزة التلفاز.

إنهم يشاهدون الأطفال! هل هذا التلصص ناقد؟ أم أنه عفوي، أم أنه مجرد تلصص ليس إلا؟

هل هي محاسبة على النوايا؟

قبل أن ندخل موضوع تأثيرات التلفاز على الناحية الاجتماعية للطفل من بابه الواسع، بدا لنا أن نحدد مسؤولية الكبار كحماة لأرواح الأطفال.